

## الفصل الحادي عشر

### لتصبح كما البرتغال

فلاديمير بوتين، الذي لم يسبق أن انتخب لمنصب سياسي، قاد بصعوبة حملة قبل الانتخابات، التي تسببت استقالة يلتسين بالتبكير بها، فتقدم موعدها إلى 26 مارس/ آذار 2000م. بصفته رئيسًا للوزراء، رسم رؤيته لروسيا فقط في وسائل الإعلام، أما حملته الحقيقية الوحيدة، أو برنامج الانتخابي، فظهر في بيان (المانيفستو) على الموقع الإلكتروني للحكومة في 28 ديسمبر/ كانون الأول، عشية مفاجأة تعيينه من قبل يلتسين. أعد هذه الوثيقة مركز التنمية الإستراتيجية، وهو مؤسسة بحثية أسسها جريف الألماني، الخبير الاقتصادي الذي كان أحد زملاء بوتين في إدارة أناتولي سوبتشاك<sup>1</sup>. في الوثيقة، المانيفستو، المكونة من خمسة آلاف كلمة، والتي أطلق عليها (روسيا في مطلع الألفية)، اعترف بوتين بصراحة أن الوضع الاجتماعي والاقتصادي تقلص في البلاد وفي العالم، وأن الناتج القومي الإجمالي للبلاد انخفض بمقدار النصف في التسعينيات، وأصبح اليوم عُشر مثيله في الولايات المتحدة، وخُمس نظيره في الصين، وأن الأمر سيستغرق خمس عشرة سنة من النمو الاقتصادي الكبير فقط للوصول إلى مستوى البرتغال أو إسبانيا.

جاء في الوثيقة: «روسيا في خضم واحدة من أصعب المراحل في تاريخها»، وأيضًا: «للمرة الأولى منذ 200 أو 300 سنة الماضية، تواجه روسيا تهديدًا حقيقيًا قد يزلقها إلى المرتبة الثانية، وربما حتى الثالثة بين دول العالم، والوقت ينفد لتجنب هذا»<sup>2</sup>. كانت الوثيقة بمنزلة وصفة طبية لاستعادة الوحدة الوطنية، والوطنية، وحكومة مركزية قوية، لا «استعادة

أيديولوجية الدولة الرسمية في روسيا تحت أي ستار»، أي عقد اجتماعي طوعي يعزز سلطة الدولة، ويقضي على الفوضى والطموحات الانقسامية لرعاياها. بدت نبرة الوثيقة وكأنها ذات طابع ديني تقريباً، كما لو أن بوتين يتقاسم (الإلهام الشخصي) في منتصف الطريق لروسيا الذي سيوصل بين تاريخها السلطوي ومستقبلها الديمقراطي<sup>3</sup>، «روسيا تحتاج سلطة الدولة القوية ويجب أن تمتلكها؛ أنا لا أدعو للشمولية، فالتاريخ يثبت أن كل الدكتاتوريات، وجميع الضروب السلطوية للحكومة، تبقى عابرة لا تدوم، وأن الأنظمة الديمقراطية هي التي دائماً تدوم».

مع واجباته الرئاسية، تحاشى بوتين الأحداث السياسية العلنية في أثناء حملته الانتخابية القصيرة، ولم يجر أي تحالفات، ولم يلق خطابات، ورفض المشاركة في مناظرات مع منافسيه، عاكساً شخصيته العنيدة وازدراءه لسياسة التجزئة، فقدم تعريفاً للحملة الانتخابية الحديثة في روسيا بصورته، وبطرق يمكن أن تخدم المستقبل الديمقراطي الذي أذن به سقوط الاتحاد السوفييتي.

في غضون أيام من توليه الرئاسة في ليلة رأس السنة الميلادية، كان بوتين قد اختار منافسيه الأساسيين المحتملين، حيث تكون ساحة الملعب معهم شبه خالية له. أو: محاولاً أن يفرض قواعد اللعبة لمصلحته. وبحلول نهاية يناير/كانون الثاني عام 2000م، كانت كتلة الوحدة في مجلس الدوما قد نسقت تحالفاً لا مع الديمقراطيين أو الليبراليين، بل مع الشيوعيين، ومن ثم قسم الوحدة والحزب الشيوعي رئاسة اللجنة بين أعضائهما، في حين أن الباب أوصد في وجه يفجيني بريماكوف، فضلاً عن سيرجي كيريينكو، الذي حصل على مقعد بعد إقالته من منصب رئيس الوزراء، ويافلينسكي، الليبرالي البارز في السياسة الروسية. قاطع أنصارهم على الفور مجلس الدوما، ونتيجة لذلك التحمت الأغلبية الموالية للكرملين بغض النظر عن الاختلافات الأيديولوجية بينها. كانت البلاد تتعلم أن الأيديولوجية أقل أهمية عند بوتين من أغلبية تشريعية منظمة مطواعة.

بعد أسبوع أعلن لوجكوف، الذي أعيد انتخابه رئيسًا لبلدية موسكو في ديسمبر/ كانون الأول، أنه لن يتنافس ضد بوتين على الرئاسة، وبريماكوف، الذي أعلن ترشيحه عشية الانتخابات البرلمانية، انسحب أيضًا من السباق الرئاسي بعد أسبوعين، باستقالة مريرة، وقال: «أشعر كم هو بعيد مجتمعنا عن المجتمع المدني وعن الديمقراطية الحقيقية»<sup>4</sup>. في أوائل فبراير/ شباط كان أخطر منافسي بوتين - الذين كانوا يخيفون يلتسين في الأيام الأخيرة من رئاسته - قد تلاشوا واحدًا تلو الآخر قبل أن تبدأ الحملة رسميًا، ثم قدم الحكام الإقليميون دعمهم لبوتين، ومن ضمنهم الرجل الذي ندد به ووصفه بأنه يهودا، قبل أربع سنوات، فلاديمير ياكوفليف من بطرسبورغ. الانتخابات التي شغلت آخر الشهر الأخير للرئيس بوريس يلتسين، تبين أنها ليست انتخابات درامية على الإطلاق، ولم تكن تنافسًا ديمقراطيًا بين المرشحين بقدر ما كانت استفتاء على رجل يمسك حقًا بهذا المنصب. حاكم واحد فقط، فاسيلي ستارودوبتسيف، الشيوعي من تولا، أعلن دعمه لأحد منافسي بوتين، وهوزميل الشيوعي غينادي زغانوف، وسأل: «إذا لم يكن هناك منافسون فليس هناك أي ديمقراطية، وإذا لم يكن هناك ديمقراطية فما الفكرة من وراء هدم البلدة»<sup>5</sup>.

بوتين أخبر يلتسين أنه لا يحب الحملات الانتخابية، واليوم يرفض وعود الحملة الانتخابية لأنها أكاذيب غير قابلة للتحقيق، يتشدد بها السياسيون، وتروج لها الإعلانات التلفازية المشوهة للسمعة، إضافة إلى أنها تلاعب غير لائق بالمستهلكين السذج. في زيارة له لمدينة المنسوجات إيفانوفو، أعلن أنه يرفض الوقت الذي يخصصه التلفاز الرسمي لجميع المرشحين لعرض سيرهم الذاتية ومواقفهم، وقال: «هذه المقاطع المصورة للإعلان»، مكدبًا تقديره لأهمية التلفاز في صوغ صورته الجماهيرية: «أنا لن أحاول في سياق الحملة الانتخابية أن أكتشف أيهما أكثر أهمية: التامباكس أم سنيكرز»، ومع ذلك جند مساعدو بوتين من وراء الأستار فريقًا للحملة يقوده مساعده الشاب الذي أحضره معه من بطرسبورغ، ديمتري ميدفيديف. وأجرى الباحثون عملية معقدة لرسم الصورة الشخصية والسياسية لبوتين، مع كل التقنيات السياسية المختبرة الحديثة، من غير أن تلقي بالأل للديموقراطية

العملية. وكانت النتيجة صورة لا لسياسي، وإنما لرجل ما فوق السياسة. نجاح إستراتيجي بوتين فاق التوقعات، وأجرى التلفاز الرسمي مقابلة ذاتية مطولة معه- في ذهنه قد لا تكون قد ارتقت إلى المقابلة التجارية، على الرغم من أنها كانت كذلك- وأطلقت حملته سلسلة من المقابلات التي أجريت على مدى ستة أيام من قبل ثلاثة صحفيين.

المقابلات جمعت في كتاب سُمِّي من الشخص الأول؟ وهي العبارة التي تفهم في الروسية أنها تقترح (الأول)، وتعني الزعيم أو رب العمل. بوريس بيريزوفسكي، الذي لا يزال يسيطر على قناة التلفاز الأولى، دفع لطباعة الكتاب، راغبًا بهذا في التزلف لبوتين بعد تدهور نفوذه داخل الكرملين دراماتيكيًا، (لم يجتمع مع يلتسين منذ عام 1998م). عندما حظرت لجنة الانتخابات البيع التجاري للكتاب بوصفه انتهاكًا لقوانين الحملة، اشترت مقار بوتين الطبعة الأولى بكميات كبيرة، ووزعت نسخًا منها مجانًا على الناخبين.

وفي سرد سيرة بوتين الذاتية، تحدث بوتين وليودميلا، وغيرهما ممن عرفوه منذ سنوات، بطريقة ودودة وصريحة أحيانًا، صوّرتة على أنه ذلك الرجل العادي، ولكن أيضًا الرجل الذي لا منازع له، والحاكم الشاب دون منازع، لأمة عظيمة كبيرة، بزغت في (زمن المتاعب).

نجح بوتين في الوقت نفسه في التعبير عن الفخر بتربيته السوفييتية، ومهنته في الـ (كي جي بي)، في حين نأى بنفسه عن إخفاقات الاتحاد السوفييتي، وقدم لكل شخص شيئًا يعتز به؛ من رموز الماضي التي يعوّل عليها بالديموقراطية الجديدة كل من المواطن والمؤمن المتدين على حد سواء، ولا أحد يعلم على وجه اليقين موقفه الحقيقي، لأنه يبدو كأنه يقف مع كل شيء.

في أشهره القليلة التي أحاطته بالأهمية، أصبح السؤال: (من هو بوتين؟) متداولًا بين الصحفيين والأكاديميين والمستثمرين والحكومات الأجنبية، ووكالات الاستخبارات، ومن ضمنها وكالة الاستخبارات المركزية، التي وجهت محلليها على عجل للعمل على تحليل

شخصيته، وإجراء مقابلات مع أولئك الذين لديهم فكرة عنه وعملوا معه في السنوات الماضية التي كان بها غامضاً<sup>7</sup>.

إستراتيجية فريق حملة ميدفيديف كانت ببساطة أن يمضي بوتين قدماً في واجباته الرسمية بصفته رئيساً للوزراء ورئيساً بالوكالة، ولم يكن من قبيل المصادفة، بطبيعة الحال، أن تلك الواجبات اقتادته إلى جميع أنحاء البلاد (بصورة متلفزة) في لقاءات من شأنها أن تصل إلى كامل أطراف المجتمع الروسي. في أحد الأيام زار مركز الفضاء الروسي خارج موسكو، ثم منصة تنقيب عن النفط في سورجوت في اليوم الثاني، ورأس اجتماعات مستشاريه الأميين، واستقبل رئيس الوزراء البريطاني في زيارته الرسمية، توني بليير، وتعهد بدفع جميع الأجور المتأخرة بحلول نهاية الربيع، ورفع المعاشات أولاً بنسبة 12 في المئة، ثم مرة أخرى بنسبة 20 في المئة، وفرض الإجراءات التي أسهمت في ارتفاع شعبيته على الأقل بقدر ما أسهمت الحرب في الشيشان<sup>8</sup>. كانت سياسة بوتين تجنب مناقشة منافسيه، لكن تصريحاته بشأن عمل الحكومة تلقى مزيداً من البث، وأكثر من أي شيء قيل في أي وقت مضى، لم يعد بأي شيء، لكنه كان يعطي.

وبمجرد الافتتاح الرسمي للحملة نشر رسالته للناخبين في ثلاث صحف رئيسة كانت قد أخذت قسطاً من الراحة مدة سنة مع روسيا يلتسين، وقد كتب: «آلة الدولة تتلاشى، محرکها- السلطة التنفيذية- يقرع ويحوزق ما إن تبدأ بتشغيله»<sup>9</sup>، وتعهد بمكافحة الجريمة، وأعلن أن الحرب في الشيشان كانت ضد (عالم الجريمة)، وليست ضد حركة الاستقلال وحق تقرير المصير تاريخياً، في إشارة مبطنة إلى تهديد بريماكوف بتبويض السجون لإفساح الطريق لأولئك المتهمين بارتكاب (جرائم اقتصادية)، فأوضح بوتين أنه لا ينوي أن يعكس الفوضى، والخصخصة المجحفة في العقد الماضي، وإنما لتعزيز سيطرة الدولة على السوق من أجل إنهاء (حلقة مفرغة) من رجال الأعمال الفاسدين الذين يدفعون الرشا لموظفي الدولة، ويضعفون موارد الميزانية التي يمكن استثمارها لإخراج الفقراء من دائرة الفقر، كتب: «ملايين الناس في هذا البلد يصعب عليهم تغطية نفقاتهم، يقترنون في كل

شيء، حتى في المواد الغذائية»، وأضاف: «إن كبار السن الذين انتصروا في الحرب الوطنية العظمى وجعلوا روسيا قوة عالمية عظمى، يحتالون من أجل عيش هزيل، أو ما هو أسوأ، ويتسولون في الشوارع».

صاغ بوتين شعاراً يرى فيه حكماً جديداً مستقراً لروسيا الجديدة يأتي بالأمن والازدهار لها، ويجسد الشعار التناقضات الداخلية في أيديولوجيته التي تأتي من خلفيته بصفته رجل قانون وضابط استخبارات، ومن مزاجه أيضاً. كانت تؤثر فيه تأثيراً قوياً حتى إنه استخدمها مرتين في رسالة واحدة، فقد صرح أن روسيا سيكون فيها «دكتاتورية القانون».

أكبر تهديد لشعبية بوتين قبل الانتخابات كان- يا للمفارقة- الحرب التي أوصلته إلى أعلى منصب في الكرملين، فبعد أن وصلت بسرعة البرق إلى نهر تيريك في خريف عام 1999م، وهلل لها الجمهور، اليوم مع حلول فصل الشتاء تتراجع مع قتال الشوارع البشع الذي يحدث في العاصمة الشيشانية للسيطرة عليها، والتي أصبحت أثراً بعد عين. وفي نهاية يناير/ كانون الثاني عام 2000م، عندما اقتحمت القوات الروسية جروزني، اعترف الجيش بمقتل 1173 جندياً، على الرغم من أن كثيرين اتهموا الحكومة بعدم الإبلاغ عن ضحايا القتال التي لا تشمل الروس من خارج الجيش ووزارة الداخلية، ومن بينهم الـFSB، أو أولئك الذين توفوا متأثرين بجراحهم في وقت لاحق<sup>10</sup>. القوات الروسية عانت من نقص في المعدات واللباس، والغذاء، والذخيرة، ويخافون من أن تقتلهم القنابل التي بحوزتهم<sup>11</sup>، ومن ثم فإن الاندفاع المتصاعد للحماس الوطني الذي رُحّب بالهجوم الأول، يواجه اليوم واقع الصراعات التي غدت أطول وأكثر دموية مما كان يتوقعه معظم الروس.

كان رد بوتين عدم تغيير التكتيكات، وإنما التأكد من أن معظم الروس لا يعرفون حقيقة ما كان يجري، وما إن تحركت القوات البرية حتى منع الكرملين وصول الصحفيين إلى الميدان، وهو ما اضطر الصحف الروسية وشبكات التلفاز لتغطية (عملية مكافحة الإرهاب) حصرياً تقريباً من وجهة نظر الجانب الروسي. كانت التغطية الرومانسية للقتال في الشيشان في

الحرب الأولى قد عززت قضيتهم واستنزفت الروح المعنوية في روسيا، لهذا لن يدع بوتين ذلك يحدث مرة أخرى.

الأخبار عن القتال الشرس، والذبح العشوائي للمدنيين، وتزايد الأدلة على ارتكاب القوات الروسية جرائم حرب، أخذت تتوالى تباغماً، خاصة في صحف المعارضة والتقارير الإخبارية الأجنبية، ولكن سيطرة الكرملين على التلفاز الحكومي أبقت الأخبار المخيبة للآمال بعيدة عن البث أو النشر. ومن تجرأ من الصحفيين على كتابة تقارير من وجهة نظر الشيشان، أو من دون الاعتماد على المعلومات الرسمية من الجيش الروسي، اعتقلوا، أو تعرضوا لما هو أسوأ. فمن ذلك أنه حين اعتقلت القوات الروسية، في يناير/ كانون الثاني، أندريه بابتسكي، وهو مراسل لراديو ليبرتي الذي تموله أمريكا، لم يوجه له الجيش تهمة انتهاك قواعد إعداد التقارير من الشيشان ويطرده من المنطقة، بل سلموه للمتمردين الشيشان مقابل خمسة أسرى حرب من الروس، كما لو أنه نفسه مقاتل عدو، وكان مصير بابتسكي سبب ضجة في الداخل والخارج، وهو ما دفع لانتشار قصص تنتقد بوتين بحدة، وخلفيته في ال (كي جي بي).

بوتين لم يبدُ دفاعياً على الإطلاق، بل بدا متحدياً، وعلى نحو أعمى حتى في بعض الحالات؛ فلم يعبأ بأي انتقاد للحرب، بل كان يعد ذلك هجوماً على روسيا نفسها، وعندما احتج صحفيو (الشخص الأول) بأن الصحفيين في منطقة الحرب ليسوا مقاتلين، أجابهم: «ما فعله بابتسكي هو أخطر بكثير من إطلاق النار من مدفع رشاش»<sup>12</sup>، وشدد على هذه النقطة، وأجاب بكل بساطة: «نحن نفسر حرية التعبير بطرق مختلفة».

أثارت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت قضية بابتسكي عندما زارت موسكو والتقت بوتين في فبراير/ شباط، ولكنها- مع ذلك- بعد اجتماع دام ثلاث ساعات خرجت من الاجتماع مسحورة بزعيم روسيا الجديد، ولم تكن هذه المرة الأخيرة التي يأتي بها نظراء بوتين الأجانب بفكرة أو بهدف ثم يندمون عليه في وقت لاحق. قالت أولبرايت: «لقد وجدته

شخصًا مستديرًا جيدًا، محاورًا جيدًا، ومن الواضح أنه وطني يسعى إلى علاقات طبيعية مع الغرب»<sup>13</sup>. وفي السر حذرت بوتين من أنه (يمتطي نمرًا) في الشيشان، وحثته مرة أخرى على السعي إلى تسوية عن طريق التفاوض، وهو ما لم يسبق أن أولاه أي أهمية أو سعى إليه، وقال لها- كما صرحت-: «لا أعتقد أننا أقرب إلى التوصل إلى حل سياسي في الشيشان»، قد تكون مصيبة وقتها، لكنه سيثبت صوابية موقفه في نهاية المطاف.

مع نهاية شهر يناير/كانون الثاني قرر قادة المتمردين الشيشان، الذين تضرروا من الهجمات الجوية على معاقلمهم في جروزني، التخلي عن المدينة، وبدأ الانسحاب الغادر الذي حُطِّط ليكون فخًا؛ فقد قَبِل الضابط الروسي في مكافحة التجسس الروسية، الذي رتب لعملية تبادل سجناء، رشوة بمئة ألف دولار للمساعدة على هروب مجموعة كبيرة من المقاتلين، من خلال تسوية قرب بلدة الخان كالا. وفي ليلة الأول من فبراير/شباط فوجئت القوة الرئيسية الطريق المخصصة قد زرعت بالألغام، وبينما كانوا يقاتلون بخسائر مدمرة، أمطرتهم القذائف الروسية، وقُتل المئات من الشيشان، ومن بين المصابين كان شامل باسايف، الذي أصبح بعد توغله في داغستان العدو الأكبر لروسيا. في أثناء هروبه تمزقت ساقه وقدمه اليمنى بلفم، وبث الشيشان شريطًا مصورًا شنيعًا لطبيب جراح وهو يتر القدم اليمنى لباسيف، ليظهروا- على ما يبدو- للمتمردين وغيرهم أنه لا يزال على قيد الحياة<sup>14</sup>.

في 6 فبراير/شباط استولت القوات الروسية على جروزني، أو على ما تبقى منها على الأقل، إذ لم يبق بناء غير مدمر فيها؛ فقد دمرت معظم مبانيها، وأصبحت غير صالحة للسكن، ورفع القادة العسكريون الروس العلم الروسي فوق المكتب الإداري للمدينة، وبسبب الدمار لم يتمكنوا من إيجاد مبنى واحد يصلح ليكون مقر القيادة العسكرية، ونقلت طائرات السلطات الروسية الإمدادات الغذائية والطبية للسكان الذين أمضوا فصل الشتاء في أقبيتهم، وكما أعلن بوتين: «ينبغي أن يعرف الناس أنهم ليسوا شعبًا مهزومًا بل أنهم شعب

تحرر»<sup>15</sup>.

الحرب لم تنته بعد، فقد تراجع آلاف المقاتلين الشيشانيين إلى الجبال، وانضموا إلى مقاتلين آخرين، ووصل عددهم إلى ما يقرب من سبعة آلاف، وكان مسخادوف لا يزال طليقاً، كما حال غيره من القادة، وتعهد باساييف بمواصلة شن حرب (على كامل الأراضي الروسية)، وقال إنه سيفي بوعده.

في 20 مارس/ آذار، قبل ستة أيام فقط من الانتخابات الرئاسية، زار بوتين جروزي للمرة الأولى، وبينما كانت القوات الروسية مستمرة في خسائرها نتيجة لهجمات حرب العصابات من خارج العاصمة، حث الناخبين في البلاد على الاستعداد لحرب أطول من أي حرب، وهو اعتراف لم يجرؤ أي شخص آخر في الكرملين الاعتراف به، فالحرب أوقفت الارتفاع المذهل في شعبيته خلال فصل الشتاء، لكن مع تغطية إخبارية موجهة تلاشت كثيرًا، ولم تعد مسألة حملة انتخابية.

وفي الوقت الذي دمرت فيه القوات الروسية (الغالبية العظمى من الجماعات المسلحة غير المشروعة)، فإن عددًا من التهديدات لا يزال قائمًا، ومن ثم أعلن بوتين أن «هذا هو السبب الذي يدفعنا إلى ألا نسحب جميع القوات من الشيشان، إذ يجب ترك ما يكفي من القوات لدينا هنا للتعامل مع المشكلات الحالية». معظم الروس لم يكتشفوا الجانب المظلم من حرب بوتين، ولا يبدو أنهم سيعيرون أي اهتمام لو اكتشفوا ذلك. كان بوتين قد وصل إلى جروزي على متن مقاتلة حربية بمقعدين صنعت في العهد السوفييتي، وظهر بالمطار العسكري كبطل فيلم حربي يتبخر بزي طيار مقاتل. هذه الأعمال المثيرة ستصبح قريبًا من دعائم سياسة بوتين، وستصقل الصورة المتلفزة لقائد سيكون له تأثير كبير في المجتمع<sup>16</sup>، فالتغطية التلفازية لزيارته إلى جروزي كانت متزلفة جدًا، حتى إن بعضهم كانوا يعتقدون أن بوتين قد قاد الطائرة بنفسه.

قبل يوم الانتخابات كانت النتيجة محسومة، والتشويق الوحيد كان نسبة الإقبال على التصويت، فأى شيء دون 50 في المئة سيجعل النتائج غير صالحة. واجه بوتين عشرة

مرشحين آخرين، لكن معظمهم كانوا معروفين قليلاً، كقادة إقليميين أو سياسيين، أمثال يوري سكوراتوف، الذي ما انفك يقاتل رافضاً إقالته من منصبه مدعيًا عامًا، دون أن يكشف عن أي معلومة تدين الدائرة الداخلية ليلتسين كما كان يدعي. بقي المنافسان البارزان اللذان عارضا يلتسين قبل أربع سنوات: غينادي زغانوف من الشيوعيين ويافلينسكي من يابلوكو. تجاهلتهما الكرملين وشبكات التلفاز التابع له بالكامل تقريباً، بل واجه يافلينسكي سيلاً معاكساً من إعلانات الحملة والتقارير الإخبارية التي تهجمه لأنه مرشح يدعمه اليهود، والمثليون جنسياً، والأجانب. كان هذا الهجوم استدعاءً للقاسم المشترك الأصغر للمشاعر الشعبية الروسية، وعكس خوفاً من أن يأخذ يافلينسكي ما يكفي من الليبراليين من ذخيرة بوتين ليجبره على جولة إعادة، فإما أن الخوف كان في غير محله، أو أن التكتيك أثبت فعاليته. وفاز بوتين بـ 53 في المئة من الأصوات في الجولة الأولى، وسحق زغانوف الذي حصل على 29 في المئة فقط، ويافلينسكي الذي حصل على أقل من 6 في المئة. وهناك دليل على أن ما حصل عليه بوتين - وهذا الإقبال - كان بمساعدة من حشو صناديق الاقتراع<sup>17</sup>، ولكن لا أحد يهتم حقاً. كان بوتين خيار الشعب بلا منازع في آخر انتخابات في روسيا يمكن أن نقول عنها ديموقراطية.

كان صعود بوتين إلى قمة السلطة سريعاً جداً، وغير متوقع، ومذهلاً، حتى إن أحد المؤرخين الروس البارزين وصف صعوده بعبارات دينية؛ وكأنه حدث بفعل قدرة خارقة أكرمت بها أمة عظيمة مُبتلاة؛ فكتب المؤرخ روي ميدفيديف: تسلّم يلتسين السلطة «دون ثورة أو سفك دماء، ومن دون انقلاب في القصر أو مؤامرة من أي نوع، ودخلت روسيا القرن الجديد مع زعيم جديد، الرئيس المفوض بوتين، كل السكان يدركون هذا تقريباً، فلا داعي للقلق، فإنما هو هدية الرب بمناسبة رأس السنة»<sup>18</sup>.

قبل أيام فقط على الانتخابات، اللغز المحير لتفجيرات المبنى السكني، وأحداث ريازان - غطتها اليوم وحشية القتال في الشيشان - بدأ يدور في رؤوس معارضي بوتين؛ إذ كانوا يعتقدون بوجود مؤامرة تتسّق مع هذا الرجل الممل الصغير الذي هو مجرد دمية بيد

قوى كبرى، ونشرت الصحيفة المستقلة (نوفايا غازيتا) سلسلة من المقالات التي عمقت اللغز حول (تدريبات) ريازان، واستشهدت المقالات بما قاله عريف الشرطة الذي كان أول من دخل المبنى السكني، والضابط الذي فحص أكياس (السكر)، ونزع فتيل التفجير، والتقت الصحيفة أيضًا بالمظلي من الفوج 137 المتمركز في قاعدة قرب ريازان، الذي أمر بحراسة المستودع، والذي وجد في الداخل هو وجندي آخر العشرات من الأكياس المسماة بالسكر، وكتبت الصحيفة: «الشاي المصنوع من هذا السكر تبين أنه خطأ، وليس حلًا على الإطلاق». أبلغ الجندي قائد فصيله، الذي كان خبيرًا يعرف اختبار المادة؛ وكانت مادة ناسفة، هي الهكسوجين، وحُدِّت هوية المظلي فقط تحت اسم ألكسي. بي<sup>19</sup>. كانت الأدلة ظرفية بحتة، لكن أشارت الصحيفة إلى أن الأحداث في ريازان، والتفجيرات في موسكو وفولغادونسك، قد لا تكون من أعمال الإرهابيين ضد الدولة، وإنما الإرهاب من قبل الدولة نفسها، وتساءلت الصحيفة: «لماذا الاحتفاظ بالهكسوجين في قاعدة خدمة خاصة، ولماذا كان معبأً بأكياس من السكر؟»، وتابعت: «وفقًا لخبراء المتفجرات يصعب تخزين أو نقل كميات بهذا الحجم؛ لأن هذا الأمر خطير جدًا؛ فنصف كيلو يكفي لنسف مبنى صغير»<sup>20</sup>. وألمحت الصحيفة إلى أن زيادة شعبية بوتين وظهوره قد لا تكون هدية إلهية بعد هذا كله، وإنما هي نتيجة لخطيئة لا تغتفر. وفي 16 مارس/ آذار سُنَّ هجوم إلكتروني دمر الطبعة التالية للصحيفة.

FSB التي ظلت صامته إلى حد كبير في ذلك اليوم بشأن التفجيرات، عقدت مؤتمرًا صحفيًا لتعلن أن تحقيقاتها كشفت عن شبكة واسعة من المسلحين الذين شاركوا في الهجمات، التي أصر المتحدث باسم الوكالة أنها نظمت داخل الشيشان<sup>21</sup>. وغيرت الـ FSB أيضًا تفاصيل جوهرية في وصفها الجديد، وخاصة تلك التي تنطوي على متفجرات؛ فبدلاً من الهكسوجين، الذي ينتجه الجيش ويحرسه حراسه وثيقة، قال جهاز الأمن الفيدرالي إن الإرهابيين استخدموا مزيجًا أكثر شيوعًا من الأسمدة المنتشرة على نطاق واسع. تلك الأوصاف المتبدلة والمشوشة لـ FSB تحددت حتى أولئك الذين يميلون إلى الاعتقاد بمسؤولية الإرهابيين عن التفجير.

أما بوتين فقد رفض- في مقابلات الحملة التي جُمعت في كتاب الشخص الأول- الشكوك التي عدها ضرباً من الجنون، وأضاف: «لا أحد في الخدمات الخاصة الروسية يستطيع أن يرتكب جريمة من هذا النوع ضد شعبه»، ثم قال: «مثل هذا الافتراض ليس أخلاقياً؛ إنها جزء من الحرب الإعلامية ضد روسيا»<sup>22</sup>. «من الذين شنوا هذه الحرب؟»، اكتفى بوتين بهذا السؤال.

أثار زغانوف ويافلينسكي الأسئلة العالقة في الحملة الانتخابية، وأوردت هذه الاتهامات قناة NTV، الجزء المستقل من تكتل وسائل الإعلام الذي يملكه رجل من القلة، فلاديمير جوسينسكي. عقدت NTV نقاشاً في صالة البلدة للمقيمين في ريزان، ناقشوا فيه المتحدث باسم جهاز الأمن الفيدرالي، وسخروا من إجاباته غير المقنعة، ثم عند نقطة معينة رفع المتحدث صندوقاً مختوماً، وأصر على أنه يحتوي على جميع الأدلة، وإن كان- بلا ريب- لا يستطيع فتحه، وكان أداؤه منافياً للعقل.

وعلى الرغم من النفي الرسمي، بدأت وسائل الإعلام وبعض المعارضة بجمع الحوادث الفردية والتقارير التي تؤيد حدوث مؤامرة لدفع بوتين إلى الفوز. مقالات في الصحف المحلية والأجنبية في الصيف قبل التفجيرات، التي قوبلت بالتجاهل إلى حد كبير، تبدو اليوم صوابية توقعاتها على نحو مخيف، على الرغم من أن الدافع المفترض في ذلك الوقت كان إعلان حالة الطوارئ، وإنهاء الانتخابات البرلمانية، لا البدء بحرب جديدة في الشيشان، أو دفع مدير مجلس الأمن الروسي ليلتسين ورئيس جهاز الأمن الفيدرالي إلى الكرملين. ففي يوليو/تموز 1999م، على سبيل المثال، تحول ألكسندر زهيلين، العقيد المتقاعد في الجيش، إلى صحفي، وقد نشر مقالاً في موسكوفا ساكيا برافدا بعنوان: (العاصفة في موسكو)، توقع فيه (هجمات إرهابية) ضد مبان حكومية، والهدف منها- كما كان يدعي- تشويه سمعة العمدة لوجكوف<sup>23</sup>.

اتصالات بيريزوفسكي الوثيقة مع الشيشان ومتمردين آخرين في القفجاز- التي أقامها في أثناء حرب الشيشان الأولى وبعدها- أوحى إلى أعدائه الكثر بأنه قد يكون متورطاً في منع تحالف لوجكوف وبريماكوف، وقد اعترف- وهو الذي خاض الانتخابات وفاز بمقعد برلماني عن جمهورية الشيشان في مكان قريب من كرتاشيفو- بلقائه المقاتلين الشيشان، ومن بينهم باسايف، وتقديم مدفوعات كبيرة لهم لتحرير الرهائن المختطفين. وأشارت نسخة مزعومة عن محادثات هاتفية لبيريزوفسكي مع زعيم الشيشان، مولادي أودوغوف، إلى أنهما ناقشا موضوع التوغل في داغستان، ويفترض بأنه استفزاز لتسوية الغزو. وأكد بيريزوفسكي أن الأشرطة جرى عليها شيء من التحرير، وإن لم ينف أن المحادثات قد جرت.

يعتقد نقاد بيريزوفسكي أنه كان على المحك في مرحلة ما بعد انتقال يلتسين، مثل أي شخص آخر، يتوقف عند أي شيء للاحتفاظ بثروته ونفوذ، فقد كتب الخبير المالي جورج سوروس: «بيريزوفسكي يرى العالم من منظور مصالحه الشخصية»، وكان سوروس قد عمل على نحو وثيق مع بيريزوفسكي حتى تنازعا على مزاد الاتصالات، وأصبح ينظر إليه على أنه شخص مخادع، كما فعل من قبل عديد من شركاء الأعمال السابقين لبيريزوفسكي، وأضاف: «لا يجد أي صعوبة في إخضاع مصير روسيا لمصيره»<sup>24</sup>.

كانت هناك حجج مضادة تدعم نسخة الـ FSB عن التفجيرات، ولكن لم تخرج عن اتهام المتطرفين الشيشان- والمقاتلين من أمثالهم في التفكير في الجمهوريات الإسلامية الأخرى- الذين ينفذون أعمالاً إرهابية، بعد كل شيء. منطلق المؤامرة السياسية تجاهل أيضاً حقيقة أن النخبة السياسية عارضت بشدة حرباً جديدة لأسباب باتت اليوم نبوية. وكان ينظر إلى شنّ الحرب في صيف عام 1999م على أنه التزام، وليس شيئاً مفيداً. واليوم بعد النجاحات العسكرية في وقت مبكر، وجميع أحاديث بوتين المتشددة، أصبحت الحرب عائقاً أمام شعبية بوتين الواسعة، بعد أن كانت هي الثقل لشعبية في البداية. وقد وجدت دراسة عن الناخبين الروس أن الحرب في الشيشان كانت القرار الأسوأ الذي اتخذته الرئيس في الأشهر الثمانية في السلطة، (وهي توازي تحركه لزيادة المعاشات والأجور بصفته أفضل

قرار اتخذه)<sup>25</sup>. علاوة على ذلك، فأى مؤامرة لا بد من أن توضع قيد التنفيذ أمام أي شخص، حتى بوتين نفسه كان يعلم أنه سيصبح رئيسًا للوزراء، فضلًا عن خليفة يلتسين المُلمَع.

الدليل على أي إصدار لم يكن حاسمًا في كل الأحوال؛ لأن FSB في عهد بوتين عادت إلى ما يشبه السرية السوفييتية؛ فتكتمت على جوانب التفجيرات وأحداث ريازان. وقبل أيام من الانتخابات أعدَّ التكتل الشيوعي وحزب يابلوكوفي مجلس الدوما مسوِّدة قرار يطلب التحقيق الرسمي فيما حدث في ريازان، ولكن صوت له فقط 197 نائبًا، وهو يحتاج إلى 226 صوتًا لتمريره، وقد صوّت ضد المشروع مؤيدو بوتين جميعهم، وهكذا فإن التضييق على لجنة تحقيق برلمانية لحل النظريات المتنازع عليها زرع شكوكًا عميقة وأكثر قتامة.

في بداية رئاسة بوتين برز لغز سيخيم على روسيا لسنوات، لغز لم يتوقف عن المطالبة بالحل، وقد توفي مشرعون وصحفيون مستقلون تعقبوا هذه المسألة بمثل هذا الانتظام المقلق، لذلك كان من الصعب أن يُنظر إلى وفاتهم على أنه مجرد مصادفة، حتى إن ميخائيل كاسيانوف، أحد المقربين من بوتين، والمسؤول في وزارة المالية خلال السنوات الأخيرة ليلتسين، جاهد لفهم وقائع التفجيرات المروعة، ثم قال بعد أكثر من عقد من الزمان: «لا أعرف».

يوم 3 يناير/كانون الثاني، بعد يومين من توليه الرئاسة بالوكالة، عرض بوتين على كاسيانوف العمل رئيسًا للوزراء، على الرغم من أنها ليست رسمية حتى بعد انتخابه. وفي ذهن بوتين أسس واضحة جدًا: كاسيانوف موالٍ للحكومة ومتخصص في الميزانية والاقتصاد، ولكن الأجهزة الأمنية ستبقى في قبضة بوتين، وفكرة أن التفجيرات التي قتل فيها نحو ثلاث مئة من المدنيين الأبرياء قد تكون من صنع الحكومة التي انضم إليها في عهد الرئيس الجديد، أو من العناصر المارقة من داخلها، ولكنها ستبقى بكل بساطة شرًا لا يمكن أن يتصوره كاسيانوف الذي قال: «أنا لا أعرف، ولا أريد أن أصدق أن ذلك صحيح»<sup>26</sup>.

بوتين كَوْنٌ فريئاً سياسياً من دائرة من الناس يمكن أن يثق بهم؛ وهذا يعني أنهم من أصدقائه الذين اعترف بأنهم قلة؛ «لدي أصدقاء، بطبيعة الحال، هم- للأسف أو ربما لحسن الحظ- ليسوا كثيراً»، قال للصحفي ميخائيل ليونتييف خلال مقابلة لفيلم وثائقي عن سيرته الذاتية التي نشرها التلفاز الحكومي قبل الانتخابات. «لأنه في ذلك الوقت، أنت تقوم من يكون من أصدقائك أكثر؛ وهؤلاء هم الناس الذين كسبت صداقتهم لسنوات عديدة، بعضهم من أيام الدراسة، وبعضهم الآخر من أيام الجامعة. طبيعة العلاقة بيننا لا تتغير، ولم أستطع أن ألتقيهم كثيراً في الآونة الأخيرة، لكن الاجتماع بهم لا يزال يجري بانتظام».

خلال الحملة الانتخابية، خسر واحداً من هؤلاء القلة؛ وهو أناتولي سوبتشاك، الذي عاد إلى بطرسبورغ في صيف عام 1999م بعد أن رجع من منفاه في فرنسا، وقد استقبل كما لو أنه ابن ضال. واليوم بعد أن وصل بوتين إلى قمم السلطة، تبخرت تلك القضايا الجنائية التي طاردت سوبتشاك في الخارج فجأة، وحاول استعادة مجده الذي تمتع به عام 1991م، بالبحث عن مقعد في مجلس الدوما، في ديسمبر/ كانون الأول، ولكن نجمه السياسي أقل وخسر، وعلى الرغم من ذلك فقد أقحم نفسه في انتخابات رئاسة بوتين، يقود حملة نشطة لمساعدته السابق.

في ليلة 18 فبراير/ شباط، في كالينينجراد، توفي فجأة بنوبة قلبية على ما يبدو في غرفته في الفندق، على الرغم من أن الشائعات تغاضت عن أسباب أخرى قد تكون التسمم<sup>27</sup>. حتى بوتين نفسه أكد التكهنات، مع غضبه وحزنه على موت سوبتشاك، وصرَّح لإذاعة بالتيكا في بطرسبورغ: «اناتولي سوبتشاك لم يميت فقط، لقد هلك لأنه كان مطارداً»، وبذلك بات اليوم تأكيد بوتين وجوب طرد يوري سكوراتوف مضمواً، فسكوراتوف هو الذي أطلق التحقيقات الأولى في شؤون سوبتشاك، ومن ثم فدور بوتين في إسقاط المدعي العام كان له غرض سياسي، وله أيضاً بعد شخصي عميق. وفي جنازة سوبتشاك ألقى بوتين كلمة مدح بها الفقيد ودعاه (سيدنا)، و(أحد آخر الرومانسيين)، وشاهدت روسيا للمرة الأولى زعيمها الجديد يذرف الدموع.

في مايو/أيار 2000م واجه قادة البروتوكول في الكرملين مشكلة لوجستية لدى إعدادهم افتتاح حفل تنصيب الرئيس الجديد لروسيا؛ فمنذ عقد الستينيات والأمناء العامون الجدد للاتحاد السوفييتي يُقسَمون اليمين في قصر المؤتمرات ذي الخرسانة والزجاج الحديث، وفي مفارقة تاريخية معمارية تشوب النزاهة التاريخية للكرملين فقد تُوِّجَ القياصرة في القرن الخامس عشر في كاتدرائية العذراء، وعندما أعيد انتخاب بوريس يلتسين تخلص عن المكانين، وأقام منصة في الهواء الطلق ليستطيع نقلها فقط إلى القصر السوفييتي القديم بسبب حالته الصحية المتردية. كان يلتسين مريضاً جداً، يمشي بتوتر، ويتحدث بارتعاش، ولم يكن قادراً على إلقاء الخطاب الافتتاحي، وأدى اليمين الدستورية من خلال جهاز التلقين<sup>28</sup>. أما بوتين فجرى حفل تنصيبه في قاعة سانت أندرو في قصر الكرملين الكبير، مقر الإقامة الإمبراطوري السابق الذي بني بتوجيهات من نيكولاس الأول. مخططو الكرملين كانوا يعرفون بدقة العدد الذي يمكن أن يستوعبه قصر المؤتمرات، ولكن لم تكن لديهم فكرة كيف سيكون امتلاء القصر الكبير مناسباً، ولمعرفة ذلك كانوا يحركون الجنود للاصطفاف في حالة استعداد، ويعُدُّونهم<sup>29</sup>، فلم يدخروا أي جهد للخوض بأدق التفاصيل.

يوم 7 مايو/أيار، وسط أبهة إمبراطورية جديدة، شهد ألف وخمسة مئة شخص الرئيس الجديد يؤدي القسم الدستوري الذي سيجعله الرجل الأول في موسكو، وفي القاعة التي جدها بافل بورودين في التسعينيات، وتسببت بالفضيحة ليلتسين وحاشيته. لم يكن بورودين يتخيل أن هذا المريب، النائب العنيد الذي أُرسِلَ إلى مكتبه قبل أقل من أربع سنوات، سيكون في يوم ما الرجل الذي يضع يده على الدستور الجديد في تلك القاعة. في كل حركة كانت المقارنة والتناقض بين يلتسين وبوتين ماثلة في وعي الملايين الذين يتابعون ذلك المشهد، إما في القاعة أو على شاشات التلفاز.

يظل بوتين سياسياً مبتدئاً، وبدا كأنه ممثل يصعد خشبة المسرح لأول مرة، وقد وصل إلى مدخل جانبي للقصر الكبير في منتصف الليل بمرسيدس زرقاء، ظهر وحده، حياً حارس

الاحتفالية عند الباب، وصعد سبغاً وخمسين درجة من درج القصر الضخم، ثم انتقل بعناية وتؤدة إلى السجادة الحمراء التي غطت الممرات الكبرى للقصر، وتتبع الكاميرات موكبه المتقن وهو يمر وسط تصفيق الضيوف المزدحمين وراء الحبال الحمراء كما هو حال الجنود. بدا بوتين صغيراً في قاعات ضخمة، وكان يرتدي بدلة داكنة وربطة عنق رمادية، وذراعه اليسرى تلوح بثقة، وكانت يمينه ثابتة على جانبه؛ ربما بسبب الكسر الذي أصابه في قتال عام 1984م الذي جعل سيرته المهنية في الـ(كي جي بي) في موضع ريبة، وبمشية تيه متميز قطع تلك المئات من الأمتار، وهو ما لم يجرؤ يلتسين على فعله في أعز أيامه تحت ضوء الكاميرات التلفازية الحيّة.

كان من بين الضيوف أعضاء في البرلمان، والمحافظون، وكبار القضاة، ورجال الدين في روسيا من أربعة أديان؛ المسيحية الأرثوذكسية والإسلام والبوذية واليهودية. وحضر الحفل ميخائيل جورباتشوف، الذي تجاهله يلتسين جلياً في حفل تنصيبه عام 1996م، حضر وكأنه شبح من عصر آخر. وحضر كذلك فلاديمير كريوتشكوف، رئيس الاستخبارات الـ(كي جي بي)، الذي قاد انقلاباً فاشلاً للإطاحة بجورباتشوف، ومن ثم فرمزية الحضور المشترك لكليهما تظهر رغبة بوتين في الوحدة بعد الاضطرابات التي شهدتها البلاد خلال العقد السابق. كان يلتسين شاحباً ومنتفخاً، وظهر معه على المنصة ليشهد تأدية القسم الذي أقيم بدقة عند الظهر. وخلال الكلمة المقتضبة للرجل العجوز، ومضت أضواء جهاز التلقين، وأجبرته على التوقف طويلاً، حتى ظن الجمهور أنه قد أنهى كلمته فصفق له<sup>30</sup>، في حين أن بوتين، الأصغر منه سنّاً بعقدين، تحدث بحديث واضح وكاسح عن هذه اللحظة التاريخية التي وصفها بأنها أول انتقال سلمي ديموقراطي لكامل السلطة في البلاد منذ 1100 سنة (أخفق حتى في التلميح إلى التزامن الذي أوجده يلتسين). وربط الحفل التاريخ الذي تتنازع عليه البلاد، والمنقسم على معنى ماضيه ومن ثم حول مستقبله. وتغاضى بوتين في كلمته عن «الفصول المأساوية والفصول الكبيرة على حد سواء»، تاركاً للجمهور أن يقرر أيّاً من تلك.

وبعد انتهاء الحفل أطلقت المدافع التحية من ضفة نهر موسكو، وفي الداخل غنت جوقة أغنية الخاتمة (الحياة من أجل القيصر)، لميخائيل جليнка، التي كُتبت عام 1836م تأبيناً لوفاة جندي في الحرب ضد بولندا، وأعيدت كتابتها في زمن الاتحاد السوفياتي باسم (إيفان سوزانين)؛ في إشارة إلى إزالة الجلالة عن القيصر. لبوتين، غنت الجوقة الأشعار السوفياتية.

بعد خروج بوتين من القصر الكبير حضر عرضاً عسكرياً داخل حرم الكرملين، والتقى ألكسي الثاني، بطيريك موسكو وسائر روسيا، رئيس الكنيسة الأرثوذكسية، ثم وضع إكليلاً من الزهر على قبر الجندي المجهول، الذي يقع خارج أسوار الكرملين، وكان شعوراً بالتتويج بقدر ما هو نقل ديموقراطي للسلطة. وأصبح لروسيا زعيم جديد جاء به عن طريق صناديق الاقتراع، لكن يبقى السؤال الصغير: إلى أين سيمضي بروسيا؟

تسلّم بوتين لزام السلطة قيّد حياته العائلية؛ فبعد أن سمح لبنتيه، ماشا وكاتيا، اللتين كانتا في السادسة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما، بإجراء المقابلات لسيرة الحملة، اختفتا من الحياة العامة، وأصبحت خصوصياتهما تحت حراسة مشددة من الكرملين؛ فلا صور لهن إلا نادراً، ولا حتى مع والديهما، ولم تكن هناك أي صورة للعائلة الروسية الجديدة الأولى في روسيا.

درست البنتان في المنزل مع معلمين ومعلمات، لا يتعلمن فقط الألمانية، وإنما أيضاً الفرنسية والإنجليزية. وفي المقابلات، ظهرت بصورة طبيعية واعتيادية، وتحدثتا كمراهقتين طبيعيتين، تستهويهما الأفلام الأجنبية مثل ماتريكس Matrix، ولكنهما لا تغامران بالخروج دون الحراس الشخصيين لهما. واشترى لهما والداهما كلباً أبيض اسمه توسكا، وهو أول كلب للأسرة منذ أن قتل كلب غنمهم القفقازي بحادث السير في بطرسبورغ. قالت ليودميلا إن زوجها دلت البنيتين دلالةً بالغا، لكنها اعترفت أنهما «لا تشاهدانه في كثير من الأحيان إلا على شاشات التلفاز في المنزل».

كان لديهم خدم وطبّاخ، وهو الذي أنقذ ليودميلا من الإحباطات التي شعرت بها عندما طبخت أول مرة في بداية حياتها الزوجية. لم تكن حياتهما معًا بالحياة التي يمكن أن تسيطر عليها وتنظمها، حتى قالت: «لا أخطط بعد اليوم، كنت أخطط، وعندما تنهار الخطة أنزعج جدًّا، لكن أفهم اليوم أنه من الأسهل لي ألا يكون هناك خطط لقضاء العطلات المشتركة، أو العطل أو الإجازة، حتى لا أصاب بخيبة أمل»<sup>31</sup>.

كانت خبرة روسيا، كما الاتحاد السوفييتي، قليلة حول زوجة الزعيم، وما يمكن أن تضطلع به من دور عام بصفتها سيدة أولى، فقط زوجة جورباتشوف الأنيقة، رايسا، كانت ترافقه في كثير من الأحيان في أسفاره، وتبنت قضايا عامة، لكن ظلت هذه بدعة ولم تكن موضع ترحيب عام. أما زوجة يلتسين فكانت تزدرى الظهور وتتجنبه إلى حد كبير، وكذلك فعلت ليودميلا، وقد عملت في عامي 1998م و1999م، لوقت قصير، ممثلة لشركة الاتصالات، التي لها فروع في بطرسبورغ وترتبط بصديق للعائلة، ليونيد ريمان، الذي شغل منصب وزير اتصالات في حكومة بوتين، وكانت تحصل على ما يعادل 1500 دولار في الشهر، ولكنها تركت العمل عندما أصبح زوجها رئيسًا للوزراء، على الرغم من أن بعضهم قال إنها ظلت منخرطة بصفقات تجارية<sup>32</sup>.

اليوم لكونها السيدة الأولى فقد انضمت إلى زوجها في الأحداث الرسمية، وخاصة مع كبار الشخصيات الزائرة، مثل توني بلير، الزعيم الغربي الأول الذي التقى بوتين بعد صعوده غير المتوقع، فأخذت عائلة بوتين عائلة بلير إلى مسرح مارينسكي في بطرسبورغ لمشاهدة أداء الأوبرا لسيرجي بروكو عن الحرب والسلام. في البداية بدا أنه سيكون لها دور عام أكثر، وبعد حفل التنصيب تبنت قضية محو الأمية، وتشجيع القراءة واللغات، وأسست مركز تطوير اللغة الروسية، الذي نظم المشاريع بهدف (تعزيز مكانة) الثقافة الروسية حول العالم<sup>33</sup>. وباستثناء لقاءات ذات طابع إنساني لم يكن لليودميلا أي دور في الحملة الانتخابية لزوجها، ولا في حكمه. وكان بوتين نفسه ينزعج حتى من الأسئلة الأكثر إيجابية عن حياتهما معًا، وعندما سأله ميخائيل ليونتييف بكل تهذيب هل لديه الوقت لرؤية عائلته، أجاب بوتين

باقتضاب: «أراها»، وأعقب تصريحه قطع ملحوظ في المقابلة. وحينها صُدم ليونتييف من حالة المنزل الذي يقطنه بوتين الذي استخدمه من قبل رؤساء وزراء في العقد السابق، إذ ظلت الصناديق- بعد ستة أشهر في منصبه- مبعثرة، وهذا ما يدل على الإقامة المؤقتة. أجاب بوتين: «كنا نعيش في مساكن مؤقتة منذ عام 1985م، وهكذا نحن؛ نتحرك باستمرار من مكان إلى آخر، ونفكر في منازلنا كما لو كانت ثكنات؛ لكن للأمانة ثكنات أنيقة جداً. يمكن أن تعيش هنا وأنت مرتاح جداً، إنما مؤقتاً، مسكن مؤقت، نحن نعيش كأننا جالسون على حقائب معبأة لدينا».

في براءة ذمته المالية، التي يتطلبها القانون، ذكر بوتين أنه يملك ثلاثة عقارات، من ضمنها المنزل الريفي خارج بطرسبورغ الذي أعيد بناؤه بعد احتراقه، وأدرج في التعاونية مع رجال أعمال آخرين من بطرسبورغ، ومن ضمنهم اثنان من المتورطين في فضيحة الغذاء المبكرة؛ فلاديمير ياكونين ويوري كوفاليتشوك. واجهت التعاونية طعناً قانونياً من القرويين في المنطقة<sup>34</sup>، ولكن نجح الثمانية في تأمين سند ملكية لشاطئ البحيرة وما حولها، وحولوها إلى حيٍّ مسوّر- يقال- مع حساب مصرفي مشترك بحيث يستطيع أن يستخدمه أي من المالكين لإيداع الأموال أو سحبها نقداً<sup>35</sup>. وأعلن بوتين كذلك أنه يمتلك أكثر قليلاً من 13 ألف دولار في حسابات ادخار مختلفة، وهي ما يجعله- وفقاً للمعايير الروسية- رجلاً ثرياً إلى حد معقول، لكن ليس مليونيراً كبيراً (كما هو حال مدخرات معظم الروس الذين فقدوا قيمة كثير من مدخراتهم بعد تخفيض قيمة الروبل في عام 1998م). ربما أغفل بعض الأصول في الكشف عن ذمته المالية، كما يفعل كثير من السياسيين عادة؛ لأن كثيراً من ثروة روسيا بقيت في الظل غير مكشوفة في الاقتصاد غير الحكومي، لكن ما ذكره هو قبل رئاسته على الأقل، فقد عاش بوتين وعائلته على ما يبدو حياة متواضعة، وحتى ذلك الحين لم يكن لديهم ضمان للمستقبل، مثل معظم الروس الذين يخشون أنه في لحظة ما قد يصبح أي شيء لا قيمة له مرة أخرى.

رأى بوتين في تجربته الشخصية مصير كل روسيا، وقال في مقابلة تلفازية مع ليونتييف: «على مدى السنوات العشر الماضية كانت البلاد كلها تعيش على هذا النحو، وهذا يعيدنا إلى المشكلة التي بدأنا بها؛ مشكلة الاستقرار»<sup>36</sup>، وكان الاستقرار الذي وعد به قد أوجده لنفسه اليوم، فقد تغيرت أحوال العائلة اليوم على نحو لا رجعة فيه؛ ففي مايو/أيار انتقلت عائلة بوتين إلى مسكن جديد في مجمع مُشجّر متاخم لنهر متعرج يدعى نوفو-أوجاريوفو، والعقار بني في الخمسينيات، وكان بمنزلة دار ضيافة للحكومة إلى أن أصبح مقر إقامة بوتين الرسمية. كانت تسمى المنطقة المحيطة به روبليوفكا، وسرعان ما ظهرت القصور الأخرى في مكان قريب منه، إذ انجذب إليها المشترون القريبون من السلطة، وأصبحت واحدة من أغلى الأماكن في العالم للعيش بها، وظلت عائلة بوتين هناك سنوات قادمة.

الرجال الذين كان بوتين يعمل معهم في بطرسبورغ تحت إمرة سويتشاك انضموا اليوم إليه في المراتب العليا من الكرملين، وكان من بينهم ديمتري ميدفيديف، الذي أصبح نائبًا لرئيس الموظفين، وألكسي كودرين، الذي ساعده مرارًا وتكرارًا في الطريق إلى موسكو، وأصبح وزيرًا للمالية، وتقلد أصدقاءه في الـ(كي جي بي) السابق- فيكتور شيركيسوف، وفيكتور إيفانوف، وسيرجي إيفانوف- المناصب الأمنية العليا. وثبت بوتين عددًا من الأصدقاء من مسقط رأسه، حتى إن حكومته أصبحت تعرف باسم عشيرة بطرسبورغ، وكانت تنظر إليها على نحو مريب النخبة السياسية في موسكو، التي كانت تستخدم احتكار السلطة والعلاوات لها.

تكهن كثيرون، من غير دليل، أنه نقل العاصمة الروسية إلى بطرسبورغ مرة أخرى، كما فعل من قبل بطرس الأكبر. ولحماية نفسه من المؤامرات السياسية البيزنطية في موسكو، تحول بوتين إلى الذين يثق صراحة بهم، وأصبحت الشخصية ملحوظة في السلطة في الكرملين، عاكسة عدم ثقته العميقة بالنخبة السياسية في البلاد، وقال معترفًا: «لدي كثير من الأصدقاء، ولكن عددًا قليلًا منهم فقط مقربون مني»، وأضاف: «لم يبتعدوا عني، لا أحد منهم خانني، وأنا لم أخذلهم أيضًا»<sup>37</sup>.

احتفظ بوتين ببعض الحلفاء البارزين ليلتسين ضمن فريق موظفيه، من بينهم رئيس الموظفين، ألكسندر فولوشين، وأناطولي تشوبايس، الأب اللعين لـ (العلاج بالصدمة)، الذي بقي الرئيس المحتكر للكهرباء الحكومية، ولكن سرعان ما تغير الطابع الهرمي في الكرملين تغيرًا كبيرًا ودرامياً.

عيّن بوتين رسمياً يوم تنصيبه رئيس وزرائه ميخائيل كاسيانوف، الذي تدرج في المناصب في عهد الاتحاد السوفيتي وبعده، فتسلم الاقتصاد ووزارة المالية خلال فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي، وكان يعرف باسم المفاوض البراغماتي الذي يحترمه نظراً في الغرب، وأطلقت عليه وسائل الإعلام اسم (ميشا اثنين في المئة)؛ بسبب شائعات بأنه يقتطع نسبة في الصفقات التي يتفاوض عليها مع المصرفيين، وهو ما نفاه بشدة، ولكن موثوقيته بصفته اقتصادياً ليبرالياً كانت لا جدال فيها، وتعيينه يشير إلى التقبل الثابت والمتأني لفكرة الخصخصة عند بوتين التي جرت في التسعينيات.

الأهم من ذلك أنه بعد الاضطرابات السياسية التي أعقبت تعيين ستة رؤساء وزراء منذ عام 1998م، لم يثر تعيين كاسيانوف أزمة دستورية جديدة مع البرلمان.

خيارات بوتين السياسية المبكرة عكست الإصلاحات الليبرالية التي هلت لها الشركات الكبرى في الداخل والخارج؛ فقد فرض على الدخل الثابت ضريبة دخل 13 في المئة على الأفراد، وخفض الضرائب على أرباح الشركات من 35 إلى 24 في المئة منذ يناير/كانون الثاني 2002م، وتعهد بأن تخفض روسيا الضرائب، ولكن توقع أيضاً أن يدفعها الناس والشركات بعد عقد من الزمن كان يتجنبها فيه كل روسي بأي وسيلة متاحة. اعتمدت حكومة بوتين الجديدة رموزاً للأراضي التي تسمح ببيع الملكية الخاصة وشرائها، واتجهت إلى مأسسة قواعد العمل التي تحكم العمل في القطاع الخاص، وإزالة بعض الشكوك التي أصابت الاستثمار بالشلل ودعت للفساد وغياب القانون. وهكذا؛ بدعم ارتفاع أسعار النفط،

والانتعاش البطيء الافتراضي لعام 1998م، فإن روسيا لأول مرة توازن ميزانيتها، وبدأت بتسديد ديونها لصندوق النقد الدولي وآخرين، وحسب الموعد المحدد.

لم تكن رئاسة يلتسين منتظمة، ولكنها وضعت الأساس لازدهار اقتصادي، وتضاعف الناتج المحلي الإجمالي- الذي نما بنسبة 5% في عام 1999م- في العام الأول لرئاسة بوتين، ثم سجل أكثر من 6 في المئة على مدى السنوات السبع القادمة<sup>38</sup>.

وبعد أن كانت الرأسمالية الغربية المتوحشة في التسعينيات قد خلقت طبقة عليا منحلة، ومجموعة من المحال التجارية والمطاعم والنوادي التي تلبى أذواقاً حصرية تبعث على السخرية، باتت ثمار اقتصاد السوق اليوم تتساقب إلى الصفوف المتوسطة من المجتمع، وخصوصاً في موسكو وغيرها من المدن، وبدأ بوتين مديراً مختصاً كفيًا بعد أن كان تلميذاً في بطرسبورغ وموسكو.

جسد بوتين تناقضات التقدم الروسي، الواقعة بين الديمقراطية الحديثة والتقاليد السوفييتية التي لم تهتز بعد، وعكست خطواته الأولية انقسام الآراء حول قيادته وفقاً للجانب الذي يقف عليه بوتين، وبدأ بوتين نفسه يجاهد في بعض الأحيان ليقرر الجانب الذي سيقف معه، ومع ذلك؛ في غضون أشهر قليلة قدم للروس استراحة من الفوضى المزمنة لسنوات يلتسين، وكان هدفه عدم تسريع انتقال روسيا إلى الرأسمالية والديموقراطية، بل التحرك الحذر، لتوفير القدر الذي يريده معظم الناس- كما كان يقول مراراً وتكراراً- من الاستقرار. وبينما كانت تتصاعد الحرب في القفقاز بعيداً، نجح هو إلى حد كبير.

يوم 11 مايو/أيار، بعد أربعة أيام من تصيب بوتين، عشرات من رجال الـ FSB اجتاحوا مقر أكبر شركة إعلامية خاصة في روسيا وسط مدينة موسكو (موست ميديا)، وكان من ضمنها القناة التلفزيونية الشهيرة NTV. وصلوا في الصباح، وأصدروا الأوامر لموظفي الكافتيريا، وعلى امتداد ساعات مشطوا المكاتب، واستولوا على وثائق، وأجهزة حاسوب، ومن بين الأشياء الشاذة الأخرى مسدس مزخرف لصاحب الشركة، فلاديمير جوسينسكي<sup>39</sup>.

بداية حياة جوسينسكي كانت شبيهة بحياة بوتين؛ فقد ولد قبل بوتين بيوم واحد، في 6 أكتوبر/تشرين الأول 1952م، وعاش في شقة بغرفة واحدة مع والديه المحبين غير المتعلمين، وكان والده أيضاً محارباً قديماً شارك في الحرب الوطنية العظمى وعاملاً في مصنع. ومثل بوتين، يعد نفسه «من منتجات الشارع»، الذي فيه تعلم الدفاع عن نفسه ضد السكاري والبلطجية في باحات مبنى سكني سوفيتي قاتم.

انتهت أوجه التشابه هناك، إذ توفي جد جوسينسكي في عمليات التطهير التي أمر بها ستالين، وعلى الرغم من ذلك خدم جوسينسكي في الجيش، وانخرط في صفقات السوق السوداء، وفي نهاية المطاف احترف الإعلام<sup>40</sup>. جميع هذه الجوانب لديه؛ تعليمه وتجاربه، وهو اليهودي، في البيروقراطية السوفييتية المتعصبة، جعلته يتمرد على النظام الذي أصبح بوتين مخلصاً له. وأصبح من الأثرياء على نحو مذهل، وفتح شركة استشارية في نهاية الثمانينيات، وصادق البيروقراطي يوري لوجكوف الذي يشرف على الفواكه وأسواق الخضراوات في المدينة. وسرعان ما توسع عمله التجاري في الخدمات المصرفية وإعادة بناء المساكن، ووسائل الإعلام التابعة له. وسميت (ميديا پوست) بهذا الاسم بعد اطلاعه على شبكة الأتمتة المصرفية التي شاهدها خلال زيارته للولايات المتحدة الأمريكية، وأنشأ صحيفة (سيفودنيا)، وأنشأ في وقت لاحق شبكة NTV، التي أثارته في نهاية المطاف غضب بوتين.

أصبحت NTV أول شبكة تلفزيونية حديثة خاصة في روسيا، مع قسم الأخبار المشاكسة الذي أثار حفيظة الكرملين أيام يلتسين، للتقارير الناقدة والمثيرة في كثير من الأحيان. ومثلما استخدم بيريزوفسكي القناة الحكومية ORT، لمهاجمة معارضي يلتسين قبل الانتخابات في عام 1999م، استخدم جوسينسكي NTV أداة ضغط ضد (حاشية) يلتسين. وكان التنافس بين قطبي التلفاز شخصياً جداً ومكثفاً على رئيس الأمن السابق ليلتسين، ألكسندر كورزهاكوف، الذي ادعى أن بيريزوفسكي طلب منه اغتيال جوسينسكي<sup>41</sup>.

بقيت NTV محافظة على تغطيتها الحرجة خلال حملة بوتين، وبثت فيلمًا وثائقيًا عن تفجيرات الشقق السكنية التي ألمحت بها إلى التورط الحكومي، والأسوأ من ذلك - من وجهة نظر الكرملين - أنها لم تتورع عن تغطيتها للحرب في الشيشان بكشف حجم الوحشية والمعاناة، وهو ما لم تتعد القنوات الحكومية على فعله. لم يدرك صاحب قناة NTV، والصحفيون العاملون بها، بسرعة أن الكرملين لم يعد يتسامح كثيرًا في الانتقادات في ظل زعيمه الجديد. وكان بوتين يكره الطريقة التي صُوِّرَ بها في البرنامج الأسبوعي للقناة (دمية ساخرة) الذي يُعده فيكتور شينديروفيتش، وينتقد فيه السياسيين في البلاد منذ عام 1994م. ولم يكن الكاريكاتير الذي رُسم به بوتين - إبريق بأذنين وعين عليّة، وصُوِّره رجلًا خجولًا أو حاقدًا بالتناوب - باعثًا على الضحك للرئيس الجديد إطلاقًا. وفي إحدى الحلقات بعد الانتخابات في مارس/ آذار، صُوِّرت الدمية على شكل القيصر، تطفئ عليه طولًا وعرضًا امرأة سمينة، هي العروس التي تمثل كل روسيا، فيهمس القيصر للمعجبين به من حاشيته: «لكنها كبيرة جدًا وليس لدي تجربة مع أي شيء بهذا الحجم»، ودمية أخرى تمثل كبير الموظفين في القصر، ألكسندر فولوشين، تقول: «فقط تفعل ما فعلناه كلنا لها»<sup>42</sup>. بعدها على الفور أوعز مساعدون في الكرملين للمنتجين بالألا تظهر الدمية الرئاسية في الهجاء الأسبوعي.

لم تكن الدوافع وراء مدهمة الشرطة لشبكة ميديا موسست واضحة على الفور، وكانت التصريحات متناقضة، كما كانت عن شرطة الضرائب، والمدعي العام، وغير ذلك، ومع ذلك فإن بوتين دافع بشدة عن هذا العمل في اليوم التالي، قائلاً إنه لا يمكن أن يكون أحد فوق القانون، ومن الواضح أنها كانت إشارة أوجدت نمطًا من شأنه أن يصبح مألوفًا؛ فقد صرَّح بوتين عشية الانتخابات: «لن تكون هناك طبقة لهذه القلة»<sup>43</sup>. لم تؤثر المدهمة فورًا في وسائل الإعلام القابضة لجوسينسكي، التي غطت الأحداث بغضب حماسي، وإذ كان بوتين يصبر أنه لن يكون هناك قيود على حرية التعبير، فإن أحدًا من جانب جوسينسكي لم يصدقه.

اعتداء النيابة العامة على شبكة ميديا موسست تزامن مع أول زيارة رسمية للرئيس كلينتون إلى موسكو في عهد الرئيس الروسي الجديد، ولم يكن بوتين قد وضع السياسة الخارجية في الأولويات من رئاسته، وإن كان في أبريل/نيسان نجح في الحصول على مصادقة مجلس الدوما على اتفاق ستارت الثاني الذي تفاوض عليه يلتسين قبل ما يقرب من عقد من الزمان للحد من الترسانة النووية للولايات المتحدة وروسيا. كلينتون اليوم حريص على إقناع الرئيس الروسي الجديد بقبول الخطط الأمريكية لبناء نظام دفاع صاروخي، على الرغم من القيود التي فرضتها معاهدة الصواريخ الباليستية المضادة A.B.M.T، والاتفاق الحاسم في الحرب الباردة الذي يمنع حدوث تصعيد في سباق التسلح النووي. كان يأمل كلينتون أن يجعل الدفاعات الصاروخية أحد إنجازاته الأخيرة قبل مغادرته السلطة، ولكن منذ أن اقترح رونالد ريغان رؤية (حرب النجوم) للدرع الصاروخية، عارض زعماء الاتحاد السوفييتي- ثم روسيا فيما بعد- بشراسة أي مقترحات تسمح لهم بذلك، وبوتين لا يختلف عن سابقه، فقد كان يخشى من أن النظام الدفاعي البدائي الذي اقترحه كلينتون يمكن أن يقوض في نهاية المطاف آخر نفوذ لروسيا بصفقتها قوة عظمى.

وعلى الرغم من أن كلينتون كان يريد أن يعقد صفقة، فإن بوتين رأى أنه من الأفضل التفاوض مع الرئيس الأمريكي المقبل، وقد زاد حذرَه من الأمريكيين تحذيرات كلينتون بشأن الحرب في الشيشان، وكذلك عبّر كلينتون هذه المرة عن رفضه الاعتداء على شبكة ميديا موسست حين التقى بوتين، وتحديدًا في المقابلة التي أجراها مع محطة (صدي موسكو) الإذاعية، التي تملكها شركة جوسينسكي. ثم زار كلينتون بعد ذلك بوريس يلتسين، الذي لا يزال يعده صديقاً بعد ثماني سنوات في الحكم، وقال له: «بوريس، لقد احتضنت الديمقراطية في قلبك، وحصلت على ثقة الشعب حتى العظم، بعد أن كنت قد تجشمت المهالك من أجل ديموقراطية حقيقية وإصلاح حقيقي، ولست متأكدًا أن بوتين يمتلك ذلك»، وانتهت الزيارة<sup>44</sup>.

انتهت زيارة كلينتون على نحو غير حاسم؛ فلا هو كسب تأييد بوتين للتغييرات التي من شأنها أن تسمح بالدفاعات الصاروخية، ولا بوتين أصغى لتشجيعه على احترام حرية وسائل الإعلام، فبعد تسعة أيام من مغادرته، استدعى النائب العام الجديد، فلاديمير أوستينوف، جوسينسكي، ظاهرياً لاستجوابه حول رصاص المسدس المزخرف الذي وجد في مقر إقامته، وبعد وصوله في وقت متأخر ألقى القبض عليه على الفور.

في 12 أغسطس/آب، وفي أثناء شهر الكسل من العطلة الصيفية، انتهى بوتين من الجولة الأخيرة من الاجتماعات مع مستشاريه للأمن القومي في الكرملين، ثم غادر مع عائلته إلى سوتشي على البحر الأسود، المنتجع المحبوب من قبل القادة السوفييت على مدى عقود، ومكثوا في منزل ريفي للرئاسة كان هو وليودميلا معجبين به عن بعد خلال حكم بريجنيف.

كان لا يكاد يمتلك وقتاً للراحة، وفي صباح اليوم التالي تلقى اتصالاً هاتفياً من وزير الدفاع، المشير إيجور سيرجييف. القدوم في ساعة مبكرة لا يمكن أن يعني سوى الأخبار السيئة، وسيكون أخطر اختبار لرئاسته الوليدة.

أحدث غواصة روسية نووية (كورسك) فقدت الاتصال مع الأسطول الشمالي خلال تدريبات في بحر بارنتس. كان بناء كورسك بدأ في زمن الاتحاد السوفيتي، واكتمل في عام 1994م، وعندما وصل الجيش العظيم في البلاد إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ما بعد السوفييتي كان فخر البحرية الروسية سفينة حربية عملاقة ترمي إلى محاربة حاملات الطائرات الأمريكية، واليوم باتت في عداد المفقودين في المياه الإقليمية قبالة مورمانسك ولا أحد يعرف لماذا. ويبدو أن سيرجييف قد ضلل بوتين عن شدة الأزمة، ربما لأنه نفسه ضلّ من قبل البحرية، وكان قائد أسطول الشمال، الأميرال فياتشيسلاف بوبوف، أصدر بياناً أعلن فيه نجاح التمرينات، لكن لم يشر إلى الكارثة التي لم تكن على ما يبدو فقط للقادة الروس، وإنما أيضاً للجيش الأجنبية والأمريكية وغيرها، الذين كانوا يراقبون هذه العملية من كثب. وحالما غادر بوتين موسكو، كان انفجار قد هز قوس كورسك، نجم عن إطلاق طوربيد

بالخطأ، وقد أشعل الانفجار حريقاً في مقصورات الصدارة، تبعه بعد دقيقتين وخمس عشرة ثانية انفجار أكبر من ذلك بكثير، اكتشفته غواصتان أمريكيتان قريبتان، وأجهزة استشعار زلزالية تبعد عنهم كبعد ألاسكا<sup>45</sup>، وأودت تلك الانفجارات بكورسك إلى قاع البحر، على بعد 354 قدماً تحت سطح عاصف. كان فريق الغواصة يتألف من 113 ضابطاً وبحاراً، يرافقهم خمسة من كبار القادة بالأسطول كانوا يراقبون العملية، الكبرى في بارنتس منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد توفي أكثرهم على الفور، لكن تمكنت مجموعة من ثلاثة وعشرين بحاراً من إغلاق مقصورة خلفية على أنفسهم، حيث كانوا ينتظرون في الظلام والبرد إنقاذاً لم يكن وشيكاً. هناك جمع الشاب النقيب دميتري كوليسنيكوف، الناجين، وتناول لفة من الورق، وكتب مذكرات لقادته وزوجته، وعلى الورقة الأخيرة من الدفتر شوهدت خربشة تؤرخ 12 أغسطس/آب، الساعة 03:15 بعد الظهر، ما يقرب من ثماني ساعات بعد الانفجار الأول، غلفها بالبلاستيك وطواها، ووضعها داخل بدنته العسكرية:

من شدة الظلمة يصعب الكتابة هنا، لكن سأحاول كأعمى

يبدو أن هناك فرصة ما من 10% إلى 20%

نحن محكومون بالأمل

أن يأتي أحد وينقذنا

هنا قائمة بالموجودين داخل المقصورة في التاسع يحاولون الخروج،

تحياتي للجميع،

لا تيأسوا<sup>46</sup>.

كانت الغواصة المحطمة بالفعل في قاع البحر عندما أُبلغ بوتين بفقدانها فقط، وقد تابع حياته على شاطئ البحر في العطلة، وتزلج بعد ظهر يوم الأحد بهدوء، وسبح في المياه الدافئة للبحر الأسود. لم يعرف أحد خارج سلسلة القيادة العسكرية عن فقدان شيء؛ لأن البحرية لم تعلن مصير الغواصة كورسك حتى يوم الاثنين، بعد أن لف الغموض المسؤولين، وكذبوا يوماً بعد يوم.

بعد الاعتراف أخيرًا بأن انفجارًا عطلَّ كورسك، أصر الموظفون على الكذب بأن السبب كان التصادم بغواصة أجنبية، ولا يستبعد أن تكون من الولايات المتحدة أو حلف شمال الأطلسي. عاد القادة العسكريون الروس إلى الغريزة السوفييتية للسرية، وكذلك فعل الكرملين. وأشارت الصحافة باقتضاب، في 14 أغسطس/آب، إلى أن قائد سلاح البحرية قد أطلع بوتين على عملية الإنقاذ، لكن بوتين نفسه لم يقل شيئاً حتى 16 أغسطس/آب، عندما غادر سوتشي، ولم يتوجه إلى موسكو، بل لحضور اجتماع لدول الاتحاد السوفييتي السابق في شبه جزيرة القرم.

في اليوم السادس من الأزمة نشرت كومسومولسكايا برافدا قائمة من 118 بحارًا على متن الغواصة، بعد أن دفعت رشوة بقيمة 600 دولار للحصول عليها. وكان تقرير الصحيفة بالنسبة إلى الأقارب هو أول تأكيد أن أبناءهم وأزواجهن كانوا على متن الغواصة، واليوم يرجح كثيرًا أنهم ميتون. وورد عنوان آخر في صحيفة تطعن مباشرة ببوتين: (سقطت البحارة على كورسك صامتين أمس. فلماذا كان الرئيس صامتًا؟)، ووجد بوتين نفسه يُنتقد في وسائل الإعلام. ونشرت صحيفة أخرى سلسلة من الصور تظهر بوتين، ببشرته الصفراء الضاربة إلى الحمرة، مع المارشال سيرجيف، يلعبان البلياردو مع قائد البحرية فلاديمير كورايدوف، والتعليق يقول: «هم لا يفرقون»<sup>47</sup>.

حسَّ بوتين في الشيشان، ووعوده الجريئة لإعادة الاستقرار إلى البلاد، خيبتها هذه الأزمة الجديدة؛ فقد بدا أنه لا يستطيع السيطرة على الجيش، أو على غضب الجماهير المتزايد وآلامهم، تحرضهم التغطية التلفازية والصحفية التي عرضت التعاطف والحسرة التي لا يشاركون فيها هو وقادته العسكريون. بوريس بيريزوفسكي، الذي لا يزال يضمّر أوهام النفوذ على الرغم من نزاعه العلني مع بوتين بشأن تصرفاته الأولية وهو رئيس، اتصل هاتفياً مع بوتين في سوتشي يوم 16 أغسطس/آب من منزله في كاب أنتيب، وقال له: «فولوديا، لماذا أنت في سوتشي؟ كان عليك أن تقطع إجازتك وتذهب لقاعدة تلك الغواصة، أو إلى موسكو على الأقل»، وحذره كما لو أنه يلحق بنفسه الضرر بصفته رئيسًا، فرد عليه

بوتين ساخراً: «لماذا أنت في فرنسا؟»، فأشار بيريزوفسكي إلى أنه ليس زعيماً للبلاد، فقال بوتين: «لا أريد أن يتدخل أحد في المكان الذي أنا فيه»<sup>48</sup>.

رفضت روسيا في البداية عروض المساعدات الدولية من النرويج والسويد وبريطانيا والولايات المتحدة، ولم يوافق بوتين إلا بعد أن اتصل به الرئيس كلينتون في سوتشي وألح على العرض. من خلال الموافقة على المساعدة، يجب على بوتين أن يفرض سيطرته على سيرجيف والعمداء البحريين الذين لا يهمهم فريق الغواصة وإنما احتمال أن يعلم أعداء روسيا بأسرار الغواصة النووية. عندما وصل الغواصون البريطانيون والنرويجيون - لا الأمريكيون - بمركبة الإنقاذ في 21 أغسطس/آب، نجحوا في فتح فتحة النجاة الخارجية لكورسك في ست ساعات، وهو ما لم يستطع فعله الروس في تسعة أيام، وفي ذلك الوقت كان فريق الغواصة بكامله قد لقي حتفه، ومن ثم فإن الأسر المنتظرة التي لا يزال يحدوها الأمل، انفجرت غاضبة حين سماعها نشرات الأخبار على NTV التي يملكها جوسينسكي، والقناة التي يسيطر عليها بيريزوفسكي.

عاد بوتين إلى موسكو بكل هدوء صباح يوم 19 أغسطس/آب، واستمر حديثه عن الأزمة ضئيلاً، تاركاً وسائل الإعلام تنشر ما تشاء عن بلد بلا رئيس وقت المأساة. وفي صباح ذلك اليوم اكتشف بيريزوفسكي العواقب الخطيرة للتغطية الإعلامية الناقدة؛ إذ أخبره رئيس موظفي بوتين، ألكسندر فولوشين - الذي كان شريكاً تجارياً لبيريزوفسكي - صراحة أن القناة كانت «تعمل ضد الرئيس»، وأخبره أيضاً بضرورة التخلي عن سيطرته على الشبكة، أو يمضي في طريق جوسينسكي. فأصر بيريزوفسكي على لقاء بوتين شخصياً، وعندما التقيا في الكرملين يوم 20 أغسطس/آب، ومعهما فولوشين، انفجر بوتين غاضباً، وادعى أن لديه تقريراً يؤكد أن بيريزوفسكي قد استأجر عاهرات يظهرن في التقارير الإخبارية يدعين أنهن زوجات أو أخوات البحارة، فردّ عليه بيريزوفسكي مصرّاً: «هن لسن عاهرات، وإنما زوجات وأخوات حقيقيات للبحارة، وبلهأء الـ (كي جي بي) يغدنونك بمعلومات لا معنى لها»<sup>49</sup>.

بهذا يكون مصير بيريزوفسكي قد أُغلق، وأصبح بوتين مستعداً؛ ففتح له ملفاً في القناة التلفزيونية الحكومية، وبدأ ينشر عن سوء إدارته المالية<sup>50</sup>، فاحتج بيريزوفسكي، لكن احتجاجه باء بالخيبة، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، إذ كان بوتين قد جرده من أي نفوذ يمكن أن يستفيد منه في الكرملين. وكان هذا هو الاجتماع الأخير بين الاثنين؛ أحدهما يتصور نفسه راسبوتين الحديث، والآخر سعيد أنه تخلص من حكم القلة البغيضة التي تمارس سلطة التلفاز.

في 22 أغسطس/آب، بعد عشرة أيام من انفجار كورسك، ذهب بوتين إلى فيديايفو، المدينة العسكرية المغلقة فوق الدائرة القطبية الشمالية. كان الميناء المأوى للغواصة النووية كورسك في هذه المدينة الصغيرة المتهالكة، بمناخها الذي لا يرحم، وكان هناك آباء فريق الغواصة وأمهاتهم وزوجاتهم وأطفالهم الذين توافدوا من جميع أنحاء البلاد ينتظرون تفاصيل المساة، تتنازعهم مشاعر الأمل والألم والحزن والغضب. وقد حاول أحد نواب رئيس وزراء بوتين، إيليا كليبانوف، استرضاء الأسر قبل أربعة أيام، لكنه جوبه بغضب غير مألوف داخل نادي ضباط المدينة. كليبانوف، الذي أشرف على الصناعات العسكرية المتعثرة في البلاد، بدأ يرتجف عندما قفزت إحدى الأمهات من مقعدها لتقول بأعلى صوتها: «خنازير!»، فاقتربت ممرضة منها من الخلف وغرزت إبرة في كم معطفها لتهدئها<sup>51</sup>.

اليوم تجمع أقارب البحارة مرة أخرى في النادي في الساعة الخامسة، وهذه المرة لمقابلة الرئيس نفسه، وانتظروا أربع ساعات حتى وصل بوتين. مرتدياً بدلة سوداء وقميصاً أسود وبلا ربطة عنق، بوتين يواجه الآن واقع المعاناة وليس (العاهرات) اللواتي استأجرهن الصحفيون عديمو الضمير كما قال، النساء الثكالي حقاً، وكان ما وجده حشداً غاضباً، فما إن أنهى جملته الأولى حتى قاطعته التهافتات، وعندما قدم تعازيه لـ (المأساة المروعة)، صاحت امرأة بصوت عال أنه يجب إلغاء يوم الحداد الذي أعلن يوم أمس.

بدا بوتين غير متأكد من نفسه، واعترف بالحالة المزرية للجيش الروسي، ولكن بدا دفاعياً، وقال: «كانت هناك دائماً المآسي، وأنتم بالتأكيد تعرفون أن بلادنا في موقف صعب،

وأن قواتنا المسلحة كذلك، لكن لم أكن أتصور أنهم في مثل هذه الحالة البالغة السوء»<sup>52</sup>، وعندما أراد رجل أن يعرف لماذا لا يمتلك أسطول الشمال غواصة إنقاذ، بادره بوتين: «لم يترك شيء لعين في هذا البلد».

وعندما تحدث عن رواتب البحارة والضباط، صرح له الحشد بغضب، وتعالى الصراخ على إجاباته، وهو ما دفعه إلى مناقشة الجمهور لكي يسمحوا له بإنهاء كلامه، ثم أخطأ أيضاً في توقيت الانفجار، وكرر مخاطلة البحرية على القضية؛ فقال: «ربما كان اصطداماً أو لغماً، أو ربما انفجاراً على متن الغواصة، مع أن المتخصصين يعتقدون أن هذا مستبعد جداً». استمر الاجتماع نحو ساعتين وأربعين دقيقة، ولم يُقصد منه إذاعته أو نشره أو بثه على الجمهور، وكانت كاميرا واحدة فقط من التلفاز الرسمي، وليس من قناة بيريزوفسكي، تصور من إحدى الشرفات، لكن الكرملين سمح فقط للفيديو بلا صوت، وهكذا لم يستطع المشاهدون سماع الأخطاء التي وقع بها الرئيس، أو الاحتجاجات الجماهيرية الغاضبة، ومع ذلك تمكن صحفي واحد من تسجيل الحدث دون أن يلاحظه أحد، وهو أندريه كوليسنيكوف، أحد الصحفيين الثلاثة الذين قابلوا الرئيس بالنيابة لإعداد الشخص الأول.

يروى كوليسنيكوف أن بوتين استطاع في نهاية المطاف امتصاص الغضب، وخاصة حين وعد بتعويض أقاربهم براتب لعشر سنوات، وشقق في موسكو وبطرسبورغ، واستمر الخوض في التفاصيل ما يقرب ساعة من الاجتماع، ثم «غادر بوتين الاجتماع»، وكتب الصحفي: «بصفته رئيساً للشعب كان مستعداً لتمزيقه إرباً إرباً قبل وقت قصير»<sup>53</sup>.

كانت تجربة أليمة، صاح بعض المحتشدين أنهم لا يريدون أمواله، بل يريدون أحبائهم، وهكذا فإن شهر العسل السياسي لبوتين قد انتهى، والهالة التي لا تقهر، والارتقاع الساحر للمبتدئ السياسي الذي سيعيد عظمة روسيا، كل هذا انتهى، وكان بوتين يعتقد أنه يعرف السبب؛ ليس حالة الإهمال في الجيش، أو التعنت السوفييتي لقادة القوات البحرية، الذين ما انفكوا يلومون الأمريكيين. رفض بوتين قبول عرض استقالة المارشال سيرجييف، أو

معاقبة أي من القادة الذين كذبوا بوضوح عن المأساة<sup>54</sup>؛ فمصيبة بوتين السياسية هي وسائل الإعلام، وقد ثارت ثورته في نادي الضباط حين سئل لماذا ارفضتم المساعدات الخارجية في عملية الإنقاذ كما أشيع؛ أجاب بوتين: «التلفاز؟ هم يكذبون! يكذبون! يكذبون! هناك أناس في التلفاز يجعجون أكثر من أي شخص آخر اليوم، والذين على مدى السنوات العشر الماضية دمروا الجيش والبحرية نفسها حيث يموت الناس اليوم».

وحتى يبعد الشك عن أي شخص يمكن أن يلام، فقد ظهر في اليوم التالي على التلفاز الرسمي في موسكو لتوجيه كلمة إلى الأمة للمرة الأولى، وبعد أن عبّر عن «شعوره الكامل بالمسؤولية، وشعوره بالذنب لهذه المأساة»، ندد غاضبًا بأولئك الذين يريدون «استثمار هذه الكارثة بطريقة عديمي الضمير»، ومن غير أن يذكر أسماءهم، أشار إلى تعهد بيريزوفسكي بدفع مليون دولار لأقارب الفريق، وذكر الفيلات التي يمتلكها هو وجوسينسكي في الخارج، ولم يغب عن أحد تلك التلميحات؛ قال: «دعوني أعبر عن ذلك بوضوح أكثر: هناك محاولات تُبذل لتضخيم الوضع سياسيًا؛ لكسب شيء من رأس المال السياسي، أو السعي لتحقيق مصالح لفئات معينة، ومصيب من يقول إن هناك مدافعين عن البحارة في الصفوف الأولى هم أنفسهم أسهموا مدة طويلة في انهيار الجيش والبحرية والدولة، وقد أسهم بعضهم في المليون. خيط واحد من الجميع، وهناك قميص لرجل عار، ومن الأفضل لهم أن يبيعوا الفل على ساحل البحر المتوسط في فرنسا أو إسبانيا؛ عندها يحق لهم أن يبينوا لماذا سجلت كل هذه العقارات بأسماء وهمية، وباسم شركات قانونية، ونحن بعد ذلك سنسألهم من أين جاؤوا بكل هذه الأموال؟».

بوتين- بلا شك- عرف هذا؛ فلهذه أكوام من الملفات؛ ففي عالم رجال الأعمال الروس المشبوه، يمكن أن تصمد قلة متنفذة صغيرة أمام التدقيق في تعاملاتهم، ومقتنياتهم الغامضة، ومناورات الضرائب، والحسابات السرية الخاصة بهم بعيدًا في الخارج، وإذا كان رئيسًا لجهاز الأمن الفيدرالي فقد جعل المعلومات المالية حكرًا عليه<sup>55</sup>، ولأنه كان رئيسًا

للوزراء، واليوم أصبح هو الرئيس، فهو يعرف أين يُعثر على المخطط الهيكلي، ولم يكن هذه بمحض المصادفة، فقد كانت طريقة الـ(كي جي بي) في وقت من الأوقات.

التحقيق مع وقف التنفيذ في ممتلكات بيريزوفسكي في الإيرفلوت سرعان ما استؤنف فجأة في الشهر التالي، وعندما استدعي للشهادة في نوفمبر/تشرين الثاني، تجاهل بيريزوفسكي الاستدعاء وغادر البلاد هاربًا، وفي فبراير/شباط باع أسهمه في القناة التلفازية لشريكه السابق، رومان أبراموفيتش، الذي حوّلها إلى الدولة.

أما جوسينسكي، الذي أفرج عنه بكفالة بعد اعتقاله في يونيو/حزيران، فغادر إلى دارته (فيلته) في إسبانيا هاربًا، وفي أبريل/نيسان 2001، سيطرت شركة غازبروم العملاقة للطاقة على NTV في انقلاب على مجلس الإدارة بعد المطالبة بقرض قيمته 281 مليون دولار كانت قد منحه لجوسينسكي لمواجهة أزمة مالية عام 1998م، ومع أن الصحفيين احتلوا الاستوديو في القناة احتجاجًا؛ فإنهم تخلوا عنه بعد أحد عشر يومًا، وتولتها فيما بعد الإدارة الجديدة. وعلى الرغم من أن كثيرين، في الداخل والخارج، سجلوا احتجاجاتهم، فإن ذلك كان من دون جدوى.

أدرك بوتين منذ البداية أهمية التلفاز لسلطة الكرملين، ليس بقدرته على رسم صورته فقط، وإنما رسم واقع روسيا نفسها، وقد أعجب سيرجي بوغاتشيف، المصرفي والصديق الذي عمل معه عن قرب في الكرملين في ذلك الوقت، بالطريقة التي يتابع فيها بوتين التقارير الإخبارية التلفازية، حتى إنه كان يستدعي مديري القنوات في منتصف البث مستنكرًا بعض جوانب التقارير، فقد كان ينظر إلى شبكة القنوات التلفازية الحكومية على أنها مورد من موارد الدولة الثمينة كالنفط أو الغاز، قال بوغاتشيف: «كان يدرك أن أساس السلطة في روسيا ليس الجيش ولا الشرطة، بل التلفاز، وهذا اعتقاده الذي لا يتزحزح»<sup>56</sup>. واليوم، بعد مرور عام على توليه الرئاسة، كانت شبكات التلفاز الرئيسية الثلاث في روسيا تحت سيطرة الكرملين.